

خطاب العتبات في رواية ياسين قلب الخلافة لعبد الإله بنعرفة

The Speech of thresholds in Yassin's novel, the Heart of the Caliphate
For Abdullah bin Arafa

الباحث: مؤيد أحمد الشرعة*

جامعة آل البيت - الأردن moaedahmad222@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/06/12 تاريخ القبول: 2021/08/07 تاريخ النشر: 2021/09/27

ملخص:

سعت هذه الدراسة لتناول إحدى روايات الروائي المغربي عبد الإله بنعرفة، صاحب مشروع الرواية العرفانية الذي انطلق عام 2002، بأول رواية عرفت باسم جبل قاف، هذا المشروع الذي تبني صاحبه الفكر الصوفي ليكون مادة له، واستمد من التراث مواضيع وشخصيات وأحداث وفضاءات تخدم نسقه الروائي، وقد سعى الباحث إلى دراسة رواية ياسين قلب الخلافة، التي تعد آخر رواية من روايات المجموعة الثانية من هذا المشروع، وقد حاول الباحث دراسة عتباته، محاولاً توضيح الخصائص والسمات التي تعزز خصوصية هذا المشروع وفردته عن غيره من أنساق روائية، ومحاولة الوقوف على الأساليب المختلفة التي تم استعمالها وتوظيفها من قبل الناص لتحقيق الغاية سابقة الذكر.

الكلمات المفتاحية: العتبات، الرواية العرفانية، ياسين، الصوفية، الخلافة

Abstract: This study sought to address one of the novels of the Moroccan novelist Abdel Ilah Benarafa, the author of the mystical novel project that was launched in 2002, with the first novel tagged in Mount Qaf. This study is a novel by Yassin, the heart of the caliphate, a subject for her, which is the last novel of the second group novels of this project, and the researcher has tried to study her threshold from vision in an attempt to clarify the characteristics and features that enhance the specificity and uniqueness of this project from other narrative formats, And trying to stand the different methods that were used and employed by the narrator to achieve the aforementioned goal.

Key words: Entrances, the novel mystical, Yassin, Sufism, the Caliphate

1. مقدمة:

1.2 الرواية العرفانية.

تعد الرواية العرفانية نتاج مشروع الروائي المغربي عبد الإله بنعرفة، فقد سعى في مشروعه هذا إلى تبني المادة التاريخية، وما فيها من معطيات الفكر الصوفي، ليعيد تطويعها على هيئة نتاج أدبي روائي يحمل اسم مشروع الرواية العرفانية، وقد حاول غير قليل من النقاد والباحثين تعريف مصطلح الرواية العرفانية، ومنهم إبراهيم الحجري، إذ يقول أنها: "الرواية التي تتفاعل مع مجال التصوف العالمي أو العربي، وتنهل مادته منه، وهي تتداخل مع الرواية التاريخية وتتقاطع معها من حيث العودة إلى التاريخ العام أو الخاص، والحفر في ثناياه لا بقصد استعادته في جموده، بل من أجل تحيينه وقراءته قراءة جديدة تملأ فراغاته، وترمم ثقوبه، حيث لا يتم التركيز على الوقائع والأحداث التاريخية، بل تسعى إلى تمثيل المشاعر الكامنة، والعلاقات التي تربط الناس والعوالم في جدلية السيرة الحياتية"⁽¹⁾.

"أما من ناحية أصل تسمية هذا المشروع ومصدرها، فإن هذه التسمية جاءت نسبةً من مصطلح العرفان الذي يمثل فلسفة التصوف، هذا الفكر الذي يتبناه السارد ووظفه في مشروعه، الذي وجدنا أنه انطوى على بعدين، الأول: تعبدي روحي، والآخر: معرفي صوفي أو عرفاني"⁽²⁾.

1.3 التعريف بالروائي:

هو الدكتور عبد الإله بنعرفة، باحث وأستاذ وروائي مغربي، حاصل على الدكتوراه في علم اللسانيات من جامعة السوربون، ويعد من رواد الرواية العربية المعاصرة، وذلك نتيجة إصداره سلسلة من الروايات التي تستلهم أحداثها من الماضي، وتطوع الفكر الصوفي ومعطياته وشخصه في أعماله الأدبية، وقد انماز مشروعه بأنه كان محدد المعالم والمنهجية، من حيث الالتزام بلغة رفيعة، والابتعاد عن الموضوعات التي تخالف العادات والقيم العربية الإسلامية⁽³⁾.

وجدير بالذكر أنه من دعاة الرجوع إلى التراث، واستغلال مادته الوافرة في إنتاج أدب عربي له خصوصيته ورونقه الخاص، بعيداً عن التقليد الأعمى لبعض النماذج الغربية المتنافية مع الثقافة

العربية، بالإضافة إلى محاولته إظهار القدرة على مزج النثر بالشعر في سياق روائي معاصر، مما يعطي الرواية العربية ميزة عن غيرها.

1.4 إشكالية الدراسة:

تقوم هذه الدراسة على محاولة استبيان دلالات عتبات رواية ياسين قلب الخلافة، والوقوف على منجزات الرواية العرفانية وما قدمته من تجديد في نطاق خطاب العتبات، سواء من ناحية توظيف السياق الديني، أو من اعتماد أيقونات بصرية تنصدر الواجهة، أو من ناحية التقديمات والبيانات الأدبية، والقصائد الختامية أو الافتتاحية.

2. تحليل خطاب العتبات في رواية ياسين قلب الخلافة:

2.1 العنوان:

تعد العتبات الخطوة الأولى للولوج إلى عالم النص الأدبي، فهي التي تمهد فكرة النص الأدبي ومحتواه للقارئ، وذلك بإعطائه إشارات تختلف دلالاتها باختلاف مستويات فهمه، بالإضافة إلى كونها علامات دالة مكتملة للعمل الإبداعي، تعكس مدى قدرة المؤلف على ابتكار ما هو جديد ويمثل قيمة فنية في الوسط الأدبي.

ويعد العنوان أول عتبة يصادفها القارئ في قرأته واختياره للنص الأدبي، فهو يمثل الجسر أمامه للعبور إلى عالم النص الأدبي، ولا يعد العنوان مجرد اسم يطلق على كتاب ما حتى يعرف به، فهو لا يكتفي في كونه يتولى وظيفة تعيينية، وإنما يتعداها إلى العديد من الوظائف التي أشار إليها جبرار جينيت، مثل: الوصفية، والدلالية الضمنية، والإغرائية بالإضافة إلى الوظيفة التعيينية⁽⁴⁾، وهذا الأمر نلمسه جلياً في قرأتنا لهذه الرواية المتناولة للدراسة، إذ يسعى الباحث إلى الوقوف على دلالة العنوان فيها، والدلالات المختزلة التي ضمنها الناص في عتبة العنوان، ومدى ارتباطها بمتن الرواية، بالإضافة إلى محاولة الوقوف على كيفية قدرة الناص على جعل هذا العنوان مؤدياً للوظائف الفنية التي تحدث عنها جبرار جينيت في كتابه العتبات، لكن في البداية لا بد لنا من الوقوف على تعريف العنوان لغة واصطلاحاً، قبل الشروع في الدراسة.

العنوان لغةً: "العنوان -بضم العين وكسرهما- ما يستدل به على غيره، ومنه عنوان الكتاب"⁽⁵⁾.

العنوان اصطلاحاً: عرّف جزار جينيت العنوان بأنه مجموع العلامات اللسانية التي يمكن أن تندرج على رأس كل نص لتحديد وتدل على محتواه العام، وتغري الجمهور المقصود⁽⁶⁾.

2.2 العنوان في رواية ياسين قلب الخلافة:

يعد العنوان في روايات مشروع عبد الإله بنعرفة الروائي لبنة أساسية مهمة، وسمّة مميزة، جعلت من هذه الروايات تماز عن غيرها من أنساق وأعمال أدبية؛ وذلك لكونها قامت على نسق غريب لم تعهده الرواية العربية من ذي قبل، وهو اعتمادها على الفواتح النورانية من سور القرآن الكريم⁽⁷⁾، فقد صرّح بأن هذا المشروع يستمد مصدره من القرآن الكريم، وأنّه قرر أن يصدر كل رواية من رواياته بفاتحة نورانية، وبناءً عليه فقد قرر أن يجعل مشروعه في خمس مجموعات تقوم في مجملها على أربع عشرة رواية، تتضمن المجموعة الأولى الروايات المتصدرة بالفواتح النورانية المفردة، وهي: (جبل قاف، وبحر نون، وبلاد صاد)، أمّا المجموعة الثانية فهي تتضمن الروايات المتصدرة بالفواتح النورانية الثنائية، وهي: (الحواميم، ابن الخطيب في روضة طه، وياسين قلب الخلافة، وطواسين الغزالي)، أمّا فيما يخص المجموعة الثالثة، فقد تضمنت الروايات المتصدرة بالفواتح النورانية الثلاثية، وهي: (حناثة أُر الرحمة، ألم الجنيد، طوق سر المحبة)، أما المجموعة الرابعة فقد ظهرت منها رواية واحدة هي: (إدريس: أ ل م ص الولاية)، أما باقي الفواتح المتمثلة ب: (ألمر) من المجموعة الرابعة، و(كهيعص، وحمسق) من المجموعة الخامسة فلم تظهر بعد⁽⁸⁾.

إنّ مجموع روايات هذا المشروع يتمثل في أربع عشرة رواية، وقد أشار بنعرفة إلى أنّ هذا التقسيم يحيل إلى دلالة أخرى، وهي أنّ عدد روايات هذا المشروع تعادل عدد القرون التي مرّت على الأمة الإسلامية، أي أنّ كل رواية من رواياته ستتضمن حديثاً عن شخصية صوفية بارزة في عصر من هذه العصور الأربعة عشر، إذ إنّّه أشار إلى ذلك في قوله: "تعتبر الفاتحة النورانية في هذه الأعمال هي الشخصية الرئيسة، التي تنحجب لفائدة البطل التاريخي المنوه به في العمل، فهذه الفاتحة النورانية هي الشخصية الرئيسية التي تتلون كل مرّة بلون معين وبطل معين حتى تخفى على القارئ، فيتوهم أنّ البطل هو الشخصية الفلانية بينما الجنس الأعلى للشخصية هو الحرف أو الفاتحة النورانية"⁽⁹⁾.

أما فيما يخص العنوان "ياسين قلب الخلافة" فقد رأى الباحث أن يقف على دلالة كل كلمة استعملها الناص في تشكيله لهذا العنوان؛ لكونه يمثل دالة جدلية، ومانحاً لفرضيات قرائية تساعد المتلقي على فك شيفرات هذا النص⁽¹⁰⁾، ففي البداية استعمل الناص الفاتحة النورانية "يس" لتكون معادلاً موضوعياً لشخصية السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، بوصفه شخصية صوفية عاشت في فترة زمنية أثرت خلالها على الأمة الإسلامية، فالقارئ لروايات عبد الإله بنعرفة يجد أنه في اختياره للشخصيات الرئيسية لرواياته، يتقصد اختيار شخصية صوفية ذات تأثير كبير في تاريخ الأمة، وذلك لسببين يراها الباحث، الأول: لإرتباط عقيدة وفكر المؤلف بالفكر الصوفي، والثاني - الذي لا ينفك عن الأول - : لتعمده بيان آثار الفكر الصوفي ومفكره وشيوخه، وتبعاتها على الأمة الإسلامية في عصور خلت.

وفضلاً عن ذلك تعدُّ سورة ياسين من السور ذات الفضائل التي أشار إليها الرسول -صلى الله عليه وسلم- في غير موضع، لكننا نجد أن المؤلف يتكى في تشكيله للعنوان على حديث ضعيف وهو ما قيل أنه ذكر عنه - صلى الله عليه وسلم: "إنَّ لكل شيء قلباً، وقلب القرآن يس"⁽¹¹⁾، وهذا الأمر لا يعد اتهاماً يوجه للمؤلف، فهو لم يبيِّن حكماً شرعياً أو يصدر فتوى مستنداً على هذا الحديث الضعيف، وإنما وصف سورة يس بأنها قلب القرآن الكريم، وهذا القول إن لم ينفع فهو لن يضر، وفضلاً عن ذلك لو أردنا أن نرتب السور الكريمة التي افتتحت بحروف نورانية حسب ورودها في القرآن الكريم، سنخرج بتسع وعشرين سورة، وسيكون تعداد سورة يس هو الرقم تسعة عشر، بما يعني أنها الوسط أو كما سُميت القلب، بالإضافة إلى أنَّ هذه الرواية قد جاء ترتيبها في المرتبة السابعة، أي أنها تمثل نصف روايات هذا المشروع، أو كما تجيز العبارة قلب هذا المشروع، فنجد أنَّ الناص يقول: "يأتي هذا العمل تنويجاً وختاماً للسلسلة الثانية المؤلفة من الحروف النورانية الثنائية (حم، طس، طه، يس)، كما أنَّه يتوج النصف الأول من هذا المشروع، وعدده سبع روايات هي التي صدرت حتى الآن، من مجموع الأحرف النورانية الأربعة عشر، ومدار هذا العمل الأخير على قلب الوجود، أي الإنسان الخليفة"⁽¹²⁾.

وبناءً على ما سبق لعل المؤلف في تشكيله للعنوان "ياسين قلب الخلافة" أنه حاول أن يربط بين القرآن الكريم، وبين الخلافة الإسلامية، في كونهما يوازيان بعضهما البعض، إذ يمثل كل منهما قلباً لشيئين مهمين في الأمة الإسلامية، الأول هو القرآن الكريم، والثاني هو نظام الحكم

والولاية، فالقرآن الكريم هو كتاب تشريع خاص بالمسلمين، أما الولاية والحكم فهي خلافة إسلامية انقطعت بسقوط الدولة العثمانية، مما جعل الأمة الإسلامية تنسلخ عن نسقها الحضاري المتبع منذ عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وتتجه نحو النظم الغربية في إدارة الحكم، فكأنَّ الناص يريد أن يخبرنا بأنَّ أحد هذين القلبين قد أصيب وأنَّ آثار إصابته كانت مؤلمة للأمة بكونها أصبحت بعيدة عن هويتها الحضارية، التي تميزت بفرادة نظام الحكم فيها المستند على التشريع الرباني.

والمأمل في هذه الرواية يجد أنَّ السارد قد جعل شخصية السلطان عبد الحميد الثاني موازية للفتاحة النورانية "يس"، ولعل هذا الأمر لكون هذا السلطان آخر خلفاء الدولة العثمانية، بالإضافة إلى كونه شخصية صوفية ذات ثقل وتأثير على الأمة والأحداث التي مرت بها خلال عصره، "وإدماج مثل هذه الشخصية في عمل أدبي سيحيل إلى النص الكبير للإيديولوجيا أو الثقافة"⁽¹³⁾، التي تنتمي إليها تلك الشخصية، فالسلطان عبد الحميد شخصية جدلية في الموروث التاريخي والإسلامي، ويعد عصره وفترة حكمه مرحلة مهمة في تاريخ الأمة.

2.2 وظائف العنوان في رواية ياسين قلب الخلافة:

إنَّ وظائف العنوان -التي سبق وذكرتها- تتلخص في أربعة وظائف حددها جيرار جينيت في كتابه، وقد استطاع الناص أن يحققها في عنوان روايته هذه، على النحو الآتي:

- الوظيفة التعينية: وهي الوظيفة المتمثلة بتعيين اسم الكتاب وتعرف به للقارئ بكل دقة، وبأقل ما يمكن من اللبس والغموض⁽¹⁴⁾، وتعد هذه الوظيفة هي الوظيفة التقليدية للعنوان. تتمثل هذه الوظيفة بأنَّها تسم العمل الأدبي باسم يلازمه، يختاره الكاتب بما يتناسب مع محتوى النص الأدبي.

- الوظيفة الوصفية: "وهي الوظيفة التي يقول العنوان عن طريقها شيئاً عن النص، وهي الوظيفة المسؤولة عن الانتقادات الموجهة للعنوان"⁽¹⁵⁾، وقد تجلت هذه الوظيفة بشكل جلي في عنوان هذه الرواية، إذ ارتبط بمضمونها وأهدافها وفكر صاحبها، من حيث الدلالات والإشارات الدينية والصوفية المضمنة فيه.

- الوظيفة الإيحائية: وهي ترتبط بالوظيفة الوصفية من حيث أنها تلمح للقارئ عن محتوى العمل الأدبي، وفكرته العامة⁽¹⁶⁾.

- الوظيفة الإغرائية: وتعني "أن يكون العنوان مناسباً لما يغري، جاذباً قارئه المفترض، وينجح لما يناسب نصه"⁽¹⁷⁾، ولعل هذه الوظيفة تحققت في العنوان "ياسين قلب الخلافة" في بعدين حددها الباحث، الأول: أنّ هذه الرواية وغيرها من روايات المشروع الروائي العرفاني تقوم على توظيف فواتح نورانية من سور القرآن الكريم مما يجعل التأويل مفتوحاً أمام القارئ، ويستفز ذلك الأخير، ويدعوه لاكتشاف سر معنى الفاتحة النورانية المصدر بها عنوان الرواية؛ لكون هذه الفواتح قلما تطرق إليها أحد في التفسير، أما البعد الثاني: وهو توظيف مصطلح الخلافة الذي يثير المشاعر الدينية لدى القارئ، ويذكره بالمرور الحضاري المفقود للأمة الإسلامية، إذ نحن نعيش في عصر غاب فيه مفهوم الخلافة التي استمرت حتى نهاية فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني، وشكل هذا الغياب فجوة كبيرة لدى الأمة يتمثل بعدم ربط الموروث بالحاضر، إذ لم يتمسك أبناء الأمة بموروثهم الحضاري في صياغة أنظمة الحكم الحالية، ومحاولة إعادة إحياء الخلافة الإسلامية التي تستمد شرعيتها من تعاليم الدين، واتجهوا إلى استقطاب التجارب الغربية في بناء أنظمة حكم ملكية وجمهورية، وحاولوا تطبيقها على أرضهم، وكانت النتيجة تبئير الخلافات، والتمسك بالقُطرية، وفشل كافة المشاريع الوحدوية القائمة على الفكر القومي العربي.

إن الناص في عنوانه هذا يدفع القارئ لأن يعقد مقارنات جدلية بين فكرة الخلافة الإسلامية التي انتهت، وبين فكرة الأنظمة الحاكمة في البلاد الإسلامية التي استمدت جذورها من الأنظمة الغربية، بالإضافة إلى جدلية فكرة الجامعة الإسلامية الموحدة لكافة الشعوب المسلمة، وبين الأفكار القومية والقطرية والاشتراكية السائدة لدى تلك الشعوب، الدالة على التفرق والتشردم، فالخلافة الإسلامية كما يراها الناص أو كما يريد أن يرينا

إياها، هي أداة الوصل بين كافة الشعوب والفرق والملل الإسلامية، أو أنها تمثل قلب الأمة الإسلامية الذي يربط كافة أجزاء الجسم برباط الوحدة والدم، والعقيدة.

3. صفحة الغلاف في رواية ياسين قلب الخلافة

1.3 دلالات محتوياتها:

تعد صورة الغلاف رسالة بصرية مغرية للمتلقي تحمل دلالات ومعاني مثل الجمل والكلمات، فهي دالة أيقونية تحرك مشاعر وانفعالات القارئ، وتجذبه إلى محاولة قراءتها وتحليلها والكشف عن دلالاتها وارتباطها بالنص الابداعي المكتوب⁽¹⁸⁾؛ ولذلك نجد أن الصورة يختارها المؤلف والناشر بعناية، حتى تحقق الوظيفة الإغرائية والجمالية، ولكي منسجمة ودالة على محتوى النص.

والتأمل في الصورة المصدرة لصفحة غلاف رواية "ياسين قلب الخلافة"، يجد أنها قد احتوت على شعار الدولة العثمانية، تحيطه دائرة تعلوها كلمة "ياسين" مكتوبةً بالخط الكوفي، ولعل هذا الأمر يعد دالة لا بد من البحث في أعماقها؛ لأن اللغة البصرية التي يتم عبرها توليد مجمل الدلالات داخل الصورة، هي لغة بالغة التركيب، كما أنها لغة تعمل على نقل أفكار والدلالات من لغة إلى أخرى؛ لأنها تحكي الفكرة بلغة الشكل - الخط - اللون - الظل - الملامح - والاتساق البصري، والتنوع؛ لتضعها في سلم القراءة، وتنتهي بها إلى الفهم والإدراك، عبر تحريك وإعمال العقل ومهاراته⁽¹⁹⁾.

يرى الباحث أن إحاطة شعار الدولة العثمانية بدائرة على هذا النحو، لعله كان دلالةً على أن الخلافة الإسلامية تمثل قلب الأمة، كما هي سورة ياسين التي تمثل قلب القرآن الكريم، بالإضافة إلى ذلك نجد أن كلمة ياسين المحيطة بشعار الدولة العثمانية قد كتبت بالخط الكوفي العربي، الذي يعد من أوائل الخطوط العربية المستعملة في كتابة القرآن الكريم، ولعل هذا الأمر يعد دلالة على تنوع الأجناس وتمازجها في الحضارة الإسلامية، وعدم وجود شروط طبقية أو قومية أو عرقية تحصر موضوع الخلافة أو الحكم في أيد عربية، على الرغم من كون الأمة العربية هي التي تلقت رسالة الإسلام.

أما شعار الدولة العثمانية، فإن مكوناته وأجزائه لا تخلو من تحمل دلالات استفاد منها الناص في صفحة غلافه، فالشعار في المقام الأول يدل على هيبة الحكم وقوة الدولة، بدليل تنوع وكثرة رسومات الأسلحة النارية والتقليدية والترس الذي يحمي الخلافة والمسلمين بدليل وجود العمامة السلطانية فوق الترس محاطًا بكل تلك الأسلحة، أما الرايتان فالأولى حمراء يتوسطها هلال بنجمة، وهو علم الدولة العثمانية الرسمي، فاللون الأحمر يدل على لون الدم المبدول في سبيل الإسلام، أما الثاني فلونه أخضر يتوسطه هلال بنجمة، وهي راية الخلافة الذي يدل لونها على لون راية آل البيت، والمتصوفة، أما قرص الشمس، فلعله للدلالة على نور الإسلام والمعرفة الربانية، ويتوسط هذا القرص هلال كتب عليه "المستند بتوفيقات ربانية ملك الدولة العالية العثمانية"، وفي وسط الهلال نجد اسم السلطان عبد الحميد الثاني مكتوبًا بالطغراء، بالإضافة إلى وجود كتابين يعلوهما ميزان، وهما يرمزان للقرآن الكريم والسنة النبوية، ولعل هذا يدل على أن العدل مستمد من التشريع الرباني في دولة الخلافة العثمانية.

4 الخطاب المقدماتي:

4.1 البيان الأدبي:

تحدث النص في بيانه الأدبي عن مجموعة من القضايا المهمة التي يقوم عليها مشروعه بشكل عام وروايته هذه بشكل خاص، فقد افتتح بيانه الأدبي بالحديث عن قضية أدب الحضور، ومن ثمَّ تحدث عن قضية الإمكان والاحتمال، وأخيرًا عن قضية الولاية، ولعل اختياره لهذه القضايا لتكون موضوعا لحديثه في بيانه الأدبي، تعالقه مع الهدف المرجو إيصاله في ثنائه لعمله الأدبي، وسيسعى الباحث إلى الوقوف على كل قضية من هذه القضايا وتوضيحها.

1.4 قضية أدب الحضور:

أعلن عبد الإله بنعرفة عن كون مشروعه الروائي يقوم على ما اسماء بأدب الحضور، الذي استند في تأسيسه له على مفهوم "الدازين" لمارتن هايدغر، وتعني "الوجود الحاضر أو الوجود المقابل لللاوجود"⁽²⁰⁾، لكن بنعرفة تجاوز هذا المفهوم وزاد عليه بأن أدب الحضور "أعمق وأوسع؛ لأنه لا يكتفي بالحديث عن الوجود الظاهر، بل يتعداه للحديث عن الوجود الباطن المتمثل بالسفر إلى العوالم الناتجة عن الخيال الخلاق"⁽²¹⁾، ويتحقق هذا السفر من خلال ثلاث مرتكزات أساسية هي (الذكر، والحضور، والغيبة)، التي من خلالها يستطيع الأديب أن يشهد بحضوره على أحداث

التاريخ، وأن يعيد إحياء شخصية تاريخية مهمة بإخراجها من ماضيها، وإعادة تسريد حياتها على الورق، فالذكر يتمثل باستدكار الشخصية التاريخية وإعادته إلى الوجود بفعل الخيال الخلاق، فإذا تمّ ذلك تحقق مفهوم الغيبة الذي يتمثل بالتركيز الكامل على تلك الشخصية دون سواها، وإعادة سرد السياق التاريخي المحيط بها على نحو أدبي مؤكّداً في ذلك الأديب على استمرار نتائج تلك الأحداث التاريخية على حاضرنا⁽²²⁾.

2.4 قضية الإمكان والاحتمال:

تناول السارد في هذه القضية موضوع الممكن والمحتمل معلناً أن رواياته الأدبية تستقي من التاريخ مادته باعتباره الإطار العام، أما الأحداث والشخصيات فهي تخيلية صادرة عن مخيال الكاتب، لكن هذا لا يعني أنه تجاوز سلطة التاريخ بشكل كامل، بل هو مقيد بالأحداث التاريخية الكبرى التي لا يمكنه أن يمس بها، فهو لا يستطيع أن يلغي حدث انتهاء حكم السلطان عبد الحميد الثاني مثلاً، بل يمكنه أن يبني أحداث جديدة في حياة السلطان لم تذكرها المصادر التاريخية ولا تأثر على الأحداث الواقعية، شريطة أن تكون تلك الأحداث ممكنة الحدوث لو أتيح لها المجال في ذلك الوقت تبعاً للسياق التاريخي، وللشخصية التاريخية المتناولة، وقد مثل السارد على ذلك في بيانه الأدبي، بذكره لمشهد لقاء السلطان عبد الحميد الثاني أثناء تواجده في باريس مع الكاتب إلكسندر دومو، موضحاً أنَّ المصادر التاريخية لم تذكر أن هذا اللقاء قد تم، لكنه لم يكن متعذراً ذلك لوجود الرجلين في تلك الفترة في باريس، ثم إن ما جرى بينهما من حوار متخيل يتفق مع أفكارهما المثبتة في المصادر التاريخية⁽²³⁾.

3.4 قضية الولاية:

تعد قضية الولاية آخر قضية يتناولها بنعرفة في بيانه الأدبي، بوصفها قضية خاصة بهذه الرواية، فقد قسّم بنعرفة الولاية قسمان عامة وخاصة، وقد اعتبر الخلافة الإسلامية ولايةً خاصة لكونها تختص بأمة معينة من الناس، وأن حضور الخلافة الإسلامية لم ينقطع من أذهان أبناء الأمة الإسلامية فانقطاع ذكرها يعني التنصل من تاريخنا والانغماس بالفكر الغربي الدخيل والتخلي عن هويتنا الحضارية⁽²⁴⁾.

لقد بين عبد الإله بنعرفة النتائج التي وصفها بالكارثية نتيجة إلغاء الخلافة الإسلامية في اسطنبول، وما عكسه ذلك من تغير في جوهر نظام الحكم الإسلامي، إذ أصبحت الدول

الإسلامية منكفئةً على قطريتها، وتخلت عن التفكير في إطار الأمة العالمية مما عزز تمزقها، وجعلها أكثر ضعفاً إزاء الغزوات العسكرية والثقافية الغربية.

4.4 القصيدة الختامية:

لا مرأ في أنَّ روايات المشروع الروائي العرفاني قد انمازت بخصائص عدة عن غيرها من روايات، وهذا الأمر نجده واضحاً في العتبات النصية لروايات هذا المشروع، فمن هذه الخصائص تضمين السارد لبياناته ومقدماته الأدبية بقصيدة من تأليفه ذات نفحات صوفية، تتقاطع في موضوعها مع موضوع الرواية التي ترد فيها، وتخطب شخصيتها الصوفية الرئيسية، فعبد الإله بنعرفة يقول: "من الخصائص التي يتميز بها السرد العرفاني، هو تفجيره للمسافة بين الشعر والنثر، بحيث نجد أنَّ هذا المشروع يزاوج بين القولين في مفاصل مخصوصة من الروايات"⁽²⁵⁾، وفي رواية ياسين قلب الخلافة التي بين يدينا نجد أنَّ السارد أختتم بيانه الأدبي بقصيدة مكونة من عشرة أبيات هي:

لما طَمًا بحرُّ الاستبداد بالوحد	"تلك الخلافة تبكي حظها العثر
لما انطفئ الرُّوح في القلب وفي الدُّول	راحت تجرُّ ذبول الحزن باكية
دلَّت على ذاك آثـارٌ من الأوّل	راحت وراح إمام عادلٍ أربّ
ذاك الهُمامُ كَحَيْلِ العين من كَحَل	مات الخليفة من كان لها سنداً
ما بين غرب ومأسون من الحمل	تناوشته أيادي الغدر كائـدٌ
صُنّت الخِلافة من مكرٍ ومن زَلَل	عبد الحميد رَعَاكَ اللهُ من جبلٍ
تَسْوُسُها أممٌ جاءت على عَجَل	انظرْ إلى أمةٍ من غير قائـدها
أم أن ذاك تصـاريف من الأزل	يا صاحبي هل لهذا الأمر من فرج؟
مُـيَسَّرَ الذكر محفوظ من الوَحَل	قلب الخلافة ياسين الهدى ولـة
أهل العِناية من حافٍ ومُنْتَعِلٍ" ⁽²⁶⁾	فالبَسْ مِثَالِ نِعَالٍ قاسها قَدَمًا

إنَّ من الواضح لمن يقرأ هذه القصيدة أنها بُنيت على النمط القديم للقصيدة العربية، من حيث الالتزام بالشكل ووحدة الوزن والقافية وحرف الروي، أما من ناحية المضمون فموضوعها

يندرج ضمن مواضيع القصيدة العربية القديمة وهو الرثاء، إذ عبرت هذه القصيدة عن رثاء الشاعر للخلافة الإسلامية والخليفة عبد الحميد الثاني، بالإضافة إلى ذلك افتتح قصيدته بمقدمة بكائية طللية محاكيًا في ذلك القدماء، وهذا الاستعمال في الشكل والمضمون يحيلنا إلى موضوع مهم، وهو قدرة بنعرفة الروائي والشاعر على التعبير عن أفكاره وأهدافه من خلال أسلوبه في النص، فكتابته لهذه القصيدة على هذا النحو، عبرت عن رؤيته في كونه مؤلفًا يسعى إلى استحضار التراث الأدبي وتوظيفه في فنه النثري والشعري.

إنَّ موضوع هذه القصيدة يقوم على رثاء الخلافة والسلطان عبد الحميد الثاني، ففي البيت الأول شبه الشاعر الخلافة بالمرأة التي تبكي على حالها وحظها العاثر، وهذا الاستعمال للصورة الفنية يتناسب مع الدلالة التي يريد الكاتب أن يوصلها للقارئ، وهي حالة الضعف الشديد التي تعاني منها الخلافة، ولا يوازئها في ذلك إلا حالة امرأة ضعيفة مسلوقة الإرادة لا تملك من أمرها إلا البكاء والندب.

أما في البيتين الثاني والثالث، نجد أنَّ السارد يفتتح البيت بالفعل "راح" الذي فاعله ضمير مستتر يعود على الخلافة -الذي سنجدّه يتكرر في غير موضع من القصيدة-، ولعل هذا الاستعمال فيه إشارة خفية إلى قضية إلغاء الخلافة، فالشاعر استعمل الفعل راح الذي يدل على الرحيل والمغادرة، وهذا الأمر ينطبق على الخلافة في كونها أُلغيت بشكل كامل لأول مرة في تاريخ المسلمين، فعلى الرغم من تتابع غير قليل من الدول على حكم الأمة الإسلامية، إلا أنها لم تلغ أي دولة منها مبدأ الخلافة بموت خليفة أو بسقوط سابقتها، بل كانت تجدها بخليفة جديد، وقد قرن الشاعر في الشطر الثاني من هذا البيت رحيل الخلافة بمفارقة الروح للقلب والدول، وهذا فيه إشارة إلى تخلي أبناء الأمة ودولها الجديدة عن مبدأ الخلافة بعد سقوطها في اسطنبول، وعوضوا عنها بإتباع النظم العلمانية والغربية، فكانوا مثل من يتخلى عن روحه.

وفي الأبيات من الرابع حتى الثامن يرثي الشاعر السلطان عبد الحميد الثاني، إذ يصفه بالسند الذي كان يحمي الخلافة وبيضة المسلمين، وأنَّه كان من شدة اهتمامه بمصالحها كان السواد يحيط بعينه كالمكتحل، وهذا كناية عن كثرة السهر، لك هذا السلطان أصابته أيدي الغدر الغربية والماسونية، والملاحظ أنَّ الشاعر وظف عبارة أيادي الغدر، وهذا للدلالة على كثرة أعداء الخلافة والمسلمين، وهم الغرب والماسون، هذه الجماعة الأخيرة التي كانت شديدة العدواة للسلطان، بسبب

تصادمه مع مشاريعها. ثم يناجي الشاعر السلطان مطالباً إياه أن ينظر إلى حال الأمة من بعده كيف أصبحت أمماً وشعوباً متفرقة تتبع مستعمراتها وتقلدهم في أمزجتهم الحضارية وعاداتهم ونظمهم متناسين تراثهم وفكرهم الحضاري، ونجد أن الشاعر في البيت الثامن يخاطب السلطان بلفظة "صاحبي"، ولعل هذا الأمر يدلنا على شدة ارتباط الشاعر بالسلطان عبد الحميد، إذ يجمع بينهما ارتباطهما الصوفية فهم جميعاً أخوة وأصحاب في ظل هذا الفكر، فالتصوف يسقط كافة الفروق والتمييزات الطبقية والرسومية بين مريديها.

أمّا البيتين التاسع والعاشر فقد اختتم الشاعر قصيدته بهما، إذ أكد في البيت التاسع أن القرآن الكريم الذي فيه سورة ياسين محفوظ بأمر الله، لكننا نلاحظ استعماله لكلمة الخلافة مقررّاً إياها بكلمة ياسين، فلعله أراد أن ينبه القارئ إلى أنّ الخلافة حتى لو زالت، فإنّها محفوظة عند الله تعالى كما هو الحال بكتابه الكريم، وفي البيت الأخير يدعو الكاتب إلى إتباع طريقة السلطان عبد الحميد الثاني وأصحاب الصوفية، هؤلاء الذين وصفهم بأنهم أهل العناية وأهل الحق الصحيحة، مكنياً عن ذلك بقوله: " فالبسْ مِثَالِ نِعَالٍ قَاسَهَا قَدَمًا" (27).

5. الخاتمة:

وفي نهاية دراستنا لعتبات رواية ياسين قلب الخلافة، ومحاولة الباحث الوقوف على أساليب استعمالها، وطرائق توظيفها، والوقوف على الدلالات الكامنة وراءها، فإنّه لا بد للباحث أن يشير إلى أن المؤلف استطاع أن يوظف العتبات في روايته بصورة متناغمة تنسجم مع محتوى وفكرة عمله الأدبي، سواء أكان من العنوان أو من الأيقونة -الصورة- أو من الألوان أو من الخطوط، وذلك لكونها تشير إلى مضمون هذا العمل وفكرته، وزمان الرواية ومكانها وشخصياتها، فالناظر لهذه العتبات يدرك أن زمانها هو زمان السلطان الحيد الحميد الثاني، وأن مكانها هو أرض الدولة العثمانية، وأن شخصياتها هي من عاشت في زمن السلطان عبد الحميد الثاني.

1.5. النتائج:

- إنّ عتبة العنوان في هذه الرواية تجمع بين الفكر الصوفي الديني، وبين الإشارة إلى فضاء الرواية.

- إن عتبة الصورة أو الأيقونة تدل بشكل واضح على دعم المؤلف للدولة العثمانية، لمناصرتها الطريقة الصوفية، ولكونها دولة إسلامية تتقاطع أفكارها مع الأفكار الصوفية.
- إن توظيف الشعر العربي على النمط القديم، يدل على هدف المؤلف في إحياء التراث العربي الشعري والنثري، والدعوة إلى تمثله في الأعمال الحديثة والسير على نهجه.
- إن توظيف البيان الأدبي في هذه الرواية، يعد عتبة مفصلية؛ لكونها تكشف عن فكر المؤلف، وتمثلا دليلا إرشاديا لضبط طرق تفكير القارئ في محتوى هذه الرواية.
- إن عتبات هذه الرواية تحيلنا إلى أن المؤلف استطاع أن يعيد تشكيل إمكانات النص التاريخي، وأن يضفي عليه الملمح الصوفي، لإنتاج نسق روائي جديد، هو الرواية العرفانية.

6. الهوامش والإحالات:

- 1- إبراهيم الحجري: الرواية العرفانية: مدخل لمعرفة قضايا النوع، مجلة ذوات، ع(10)، 2015م، ص17.
- 2- مؤيد أحمد الشرعة: الرواية الصوفية بين سلطة المرجع وسلطة السارد رواية طاوسين الغزالي لعبد الإله بنعرفة أنموذجا، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، الأردن، 2019، ص8.
- 3- <https://oumma.com/auteur/abdelillah-benarafa/>
- 4- ينظر: عبد الحق بلعابد: عتبات جزار جينيت من النص إلى المناص، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط(1)، 2008، ص86-88.
- 5- مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، القاهرة، ط(1)، د.ت، ص664.
- 6- عبد القادر رحيم: العنوان في النص الإبداعي: أهميته وأنواعه، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد بخيضر بسكرة، الجزائر، ع(2)، ص10. وينظر: هشام موساوي: المناصية في الرواية المغاربية من العنوان إلى النص، دار الأمان، الرباط، د.ط، 2015، ص43.
- 7- ينظر: حبيب بوهروور: العتبات وخطاب المتخيل في الرواية العربية، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، ع(16)، 2016، ص214.
- 8- ينظر: عبد الإله بنعرفة وآخرون: جمالية السرد في الرواية العرفانية، دار الآداب، بيروت، ط(1)، 2014، ص12-19.
- 9- جمالية السرد في الرواية العرفانية، ص17-18.
- 10- ينظر: المناصية في الرواية الغربية، ص41.

- 11- محمد بن سلامة القضاعي: مسند الشهاب، مؤسسة الرسالة، ط(1)، لبنان، 1985، مجلد(2)، ص130.
- 12- عبد الإله بنعرفة: ياسين قلب الخلافة، دار الآداب بيروت، ط(1)، 2013، ص13.
- 13- ينظر: فيليب هامون: سيميولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة: سعيد بنكراد، دار الحوار، اللاذقية، ط(1)، 2013، ص36.
- 14- ينظر: عتبات جبرار جينيت من النص إلى المناص، ص86.
- 15- المرجع نفسه، ص87.
- 16- ينظر: المرجع نفسه، ص87-88.
- 17- المرجع نفسه، ص88.
- 18- ينظر: محمد إسماعيل حسونة: النص الموازي وعالم النص دراسة سيميائية، مجلة جامعة الأقصى، ع(2)، مج(19)، 2015، ص13.
- 19- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب العالمي، بيروت، د.ط، 1994، ج1، ص565.
- 20- ينظر: بديعة الطاهري: الصورة وإنتاج المعنى قراءة في غلاف رواية الحرب في بر مصر، بحث منشور على الموقع: www.aljabriabed.net
- 21- ينظر: الرواية الصوفية بين سلطة المرجع وسلطة السارد، ص9.
- 22- ينظر: جمالية السرد، ص15.
- 23- ينظر: ياسين قلب الخلافة، ص11.
- 24- ينظر: المصدر نفسه، ص14.
- 25- ينظر: جمالية السرد في الرواية العرفانية، ص32.
- 26- ياسين قلب الخلافة، ص352.
- 27- المصدر نفسه، ص352.

7. قائمة المراجع:

المراجع:

- القرآن الكريم.
- بلعابد، عبد الحق، (2008): عتبات جبرار جينيت من النص إلى المناص، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط(1).
- بنعرفة، عبد الإله، (2013): ياسين قلب الخلافة، دار الآداب، بيروت، ط(1).
- بنعرفة، عبد الإله وآخرون، (2014): جمالية السرد في الرواية العرفانية، دار الآداب، بيروت، ط(1).
- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب العالمي، بيروت، 1994.
- القضاعي، محمد بن سلامة، (1985): مسند الشهاب، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط(1).
- مجمع اللغة العربية، د.ت: المعجم الوسيط، القاهرة، ط(1).
- موساوي، هشام، (2015): المناصية في الرواية المغاربية من العنوان إلى النص، دار الأمان، الرباط.

- هامون، فيليب، (2013): سيمولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة: سعيد بنكراد، دار الحوار، اللاذقية، ط(1).

الأطاريح:

- الشرعة، مؤيد أحمد، (2020): الرواية الصوفية بين سلطة المرجع وسلطة السارد رواية طاوسين الغزالي لعبد الإله بنعرفة أتمودجنا، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة آل البيت، الأردن.

المقالات:

- بوهورور، حبيب، (2016): العتبات وخطاب المتخيل في الرواية العربية، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، السعودية، ع(16).
- حسونة، محمد إسماعيل، (2015): النص الموازي وعالم النص دراسة سيميائية، مجلة جامعة الأقصى، فلسطين، مج(19)، ع(2).
- رحيم، عبد القادر (2010): العنوان في النص الإبداعي: أهميته وأنواعه، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد بخيضر بسكرة، الجزائر، ع(2).

مواقع الأنترنت:

- بديعة الطاهري: الصورة وإنتاج المعنى قراءة في غلاف رواية الحرب في بر مصر، بحث منشور على الموقع:
www.aljabriabed.net
- عبد الإله بنعرفة: <https://oumma.com/auteur/abdelillah-benarafa/>

8. ملحق :

-صورة الغلاف.

